المترددون كُثر والباعة متجاورون، حتى الظهر يزدحم بنساء شابات ممشوقات، لدنات، فواحات، موحيات تبرز ملاءات اللف السوداء المحكمة تضاريس الاستدارات والمفارق المتصلة، لم يكن سوء التغذية انتشر بعد، ولم تكن المؤسسة عرفت استيراد الطعام المغشوش، منتهى الصلاحية، الخاوى من القيمة الغذائية، لم تمض سنوات عديدة إلا وتغيرت تلك الأوضاع، ضمرت الصدور، تضاءلت القدود، أصبح عسراً رؤية مؤخرة مكتملة يمكنها تأجيج ذاكرته، فى تلك الأيام كان يحار بين هذه وتلك، كانت الوجوه ريانة والملامح فتية، مستنفرة، أحياناً يحتوى قواماً بنظره فيندلع منه لهيب، يسعى، يناور حتى يحقق لمسة لجزء من ذراع، أو لردف نافر، يسرى عنده من الطلاوة مالا يتحقق باكتمال الانفراد والتوالج.

أتقن إخفاء ما يدور عنده، لجهامة ملامحه ظن الباعة أنه من رجال الإدارة المختصة بمراقبة الأسواق، وصل معظمهم هذا من هيئته وجلوسه مدة داخل مقهى صغير قريب لكنه لا يطل على السوق، انفرد بتقديم الشاى على الطريقة المالاوية، لذلك يقصده طلبة الأزهر القادمين من تلك الجزر البعيدة.

غير أن المقهى كان معروفًا بتوزيع نوع من الحشيش لا ينمو إلا فى أفغانستان، سمع عن تاجر صغير، بائع قطاعى، لكنه اشتهر بقدرته على تمييز الأنواع، بشمة سريعة ونظرة فاحصة يمكنه تدقيق النوع، لبنانى أم مغربى أو تركى، أما الأفغانى فلعبته، يمكنه تمييزه بالجس والبص والتذوق إذا صعب عليه الأمر لغش فى الصنف، عرف عنه الأمانة، ميزانه يضرب به المثل، ورث التجارة عن والده، بعد بلوغه الستين أبدى رغبته لصحبه